الباقلاني وآراؤه الكلامية

رسالة دكتوراه

اعداد الدكتور محمد رمضان عبدالله

مطبعة الامة ـ بغـداد

١٩٨٦

« مقدمة البحث »

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، اياك نعبد واياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين انعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ٠

سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، انك انت العليم الحكيم ٠

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد ، وعلى اخوانه الانبياء والمرسلين ، وعلى آله ،وأصحابه والتابعين ، ومن اهتدى بهديهم اجمعين ٠

رب اغفر لي ، ولوالدي ، رب ارحمهما كما ربياني صغيرا ٠

وبعد فان الامة الاسلامية لم تكن في حاجة الى احياء تراثها ، وابراز ذوي النبوغ والاصالة العلمية من ابنائها ، مثل ماهي عليه الآن ٠

فقد احاطت بها أنما ط مختلفة من الثقافات الاجنبية ، كل منها يريد غزو هذه الامة بعلمه وحضارته ، على رفات حضارتها الاصيلة ، زاعما أن الاصالة الفكرية منه تنبع ، واليه تعود ، وأنه هو صاحب الكلمة الاخيرة في كل لون من الوان الثقافة والتفكير ٠

ومما زاد الامر خطورة ، ومرارة في النفس ، اننا نرى بين ابناء هذه

الامة كثيرا ممن انخدعوا ببريق هذه الثقافات الدخيلة ، فاخذوا يحتذونها، ويتخذون منها ، أو من أصحابها الغرباء عن بيئتهم الاسلامية ، موضوعات لبحوثهم ، راغبين بذلك ان يتظاهروا بأنهم يسيرون في ركب الحضارة الحديثة ، ناسين أن من بين اسلافنا من العلماء ، من هم اجدر بالبحث عنهم ، وعن افكارهم التي هي اولى بوصف الاصالة من اولئك الغرباء .

وقد تكون افكار اسلافنا من العلماء اللبنة الاولى ، أو الاساس الاول الذي بنى عليه اولئك فلسفاتهم ، وثقافاتهم التي تبهر ـ في واقعنا اليوم ـ انظار الكثير .

هذا ، وقد يكون ما ذكرت كافيا لتوضيح اهمية موضوع هذا البحث ، وهو : « الباقلاني وآراؤه الكلامية » .

الا انني أضيف الى ذلك فأقول : ان القاضي أبا بكر الباقلاني ـ وان كان أحد اتباع المدرسة الاشعرية التي اليها يعود الفضل في حماية عقيدة أهل السنة والجماعة والدفاع عنها ضد زيغ الزائغين، وتشكيك المشككين، الا انه من أكابر اعلامها ، بل يعتبر الرجل الثاني بعد أبي الحسن الاشعري ، وقد اضاف الى المذهب الاشعري ، الكثير من افكاره الجديدة فقد وسع المذهب ، ودعمه بما أقام عليه من ادلة عقلية ، ونقلية ، وذلك بما آتاه الله من سعة في التفكير ، وطول باع في اساليب الجدل في واطلاع واسع على مختلف انواع الثقافات في عصره .

واليه ينسب كثير من القواعد ، والمقدمات العقلية ، التي لم تكن سائدة قبله في المدرسة الاشعرية .

لقد كانت جوانبه العلمية كثيرة حقا ، وانتاجه غزيرا ، واثره فيمن

أتى بعده من الاشاعرة عميقا ، وترك لمن بعده آراءا قيمة ، وآثارا نافعة في علم الكلام ، والفقه واصوله ، وفي النقد والبلاغة ، واعجاز القرآن ، وغير ذلك من العلوم التي أصبحت مصادر يرجع اليها العلماء من بعده الى يومنا هـذا ·

واصبحت كلمة « القاضي » اذا اطلقت في كتب علم الكلام الاشعرية، وكتب اصول الفقه الشـافعية ، يراد بها الباقلاني لا غيره ، وبلغ من اعجاب العلماء به وبجهاده في سبيل حماية العقيدة أن اعتبروه « مجدد المائة الرابعة للهجرة » وخلعوا عليه القاب (سيف السنة) و (لسـان الامة) و (امام متكلمي أهل الحق) الى غـير ذلك من الالقاب العظيمة التي سنذكرها في ترجمته ان شاء الله تعالى ·

ولا شك أن شخصية بهذه المنزلة من العبقرية والنبوغ لجديرة ان تحظى من الباحثين المحدثين بالعناية التي تتناسب ومنزلته وان تدرس آراؤه بتوسع وشمول ·

وقد قمت في هذه الرسالة بدراسة أهم جوانبه العلميـة ، واعني به الجانب الكلامي وقد اقتصرت في ذلك على الجانب الطبيعي ، والالهي من آرائه الكلامية ، وذلك لاني اظن أن اكثر آرائه المتميزة التي يمكـن أن تعتبر جديدة في المذهب الاشعري تنحصر في هذين الجانبين ، واما بقية المواضيع الكلامية من السمعيات ، فهو لايخرج عن آراء الاشاعرة ·

وقد توخيت من وراء هذه الدراسة أمورا :

الامر الاول :

المساهمة في اضافة لبنة الى صرح تراثنـا الاسلامي ، ذلك

التراث الذي تعتز به جامعة الازهر عامة ، وكلية اصول الدين بشكل خاص ، وتعمل دائبة على تنميته ، والاضافة اليه ، فوق ما تبذل في سبيل الحفاظ عليه ٠

والامر الثاني :

القاء الضوء على الباقلاني ، كمفكر عظيم أثرى المدرسة الاشعرية بأفكاره وآرائه القيمة التي احدثت تأثيرا واضحا فيمن أتى بعده من الاشاعرة ٠

والامر الثالث :

هو أن أتتلمذ على آرائه القيمة ، التي أراد بها الدفاع عن العقيدة الاسلامية ، التي هي حصن المسلمين ، وملاذهم ٠

هذا ، وفي سبيل الوصول الى آرائه ، اعتمدت على ما هو في متناول ايدينا من مؤلفاته وهو شيء قليل ، وعلى آرائه المبثوثة في كتب الاشاعرة ٠

واما المنهج الذي سرت عليه فهو تقسيم الرسالة الى اربعة ابواب ، وخاتمة ٠

أما الباب الاول ، فقد جعلته تمهيدا لموضوع البحث ، فتناولت فيه طائفة من المسائل التي لا يستغنى عنها في بحث يتعرض للآراء الكلامية ، فذكرت تعاريف مختلفة لعلم الكلام ، وبينت ان أسباب الاختلاف تعود الى ان علماء الكلام فريقان ، فريق يوجب على المسلم معرفة عقائده عن طريق أدلتها ، وفريق لا يوجب ذلك ، بل يكتفي منه بالتقليد ٠

وكذلك تناولت موضوع علم الكلام وبينت اختـــلاف العلماء في تحديده وأسباب الاختلاف بين المتقدمين والمتأخرين منهم في ذلك ·

وكذلك بينت غاية علم الكلام ، والقابه وآراء العلماء حول ذلك · كما تحدثت عن موقع علم الكلام عند المســلمين ، مبينا آراء المجوزين للاشـــتغال به ، والمانعين عنه ، ثم عقبت على هذه الآراء بترجيح آراء المجوزين له ، وبينت ان الذين ذموا علم الكلام ، من الأئمة المجتهدين ، انما كانوا يريدون بذلك علم الكلام السائد في عصرهم، بين الفرق المبتدعة·

وأما علم الكلام الذي يحافظ على العقيدة الاســلامية الحقة ، فلا يتصور المنع منه ، ثم تناولت بعد ذلك نشـــأة علم الكلام ، فتعرضت بايجاز لبيان الفرق الرئيسية الكبرى ، كالخوارج ، والشيعة ، والمعتزلة، واهل السنة · فجـاء ذلك كله في اربعة فصول هي :

أ ـ الفصل الاول : في تعريف علم الكلام

ب ـ الفصل الثاني ـ في موضوع علم الكلام ، وغايته ، والقابه ·

أ ـ الفصل الثالث : في موقع علم الكلام عند علماء المسلمين ·

د ـ الفصل الرابع : في نشأة علم الكلام ·

وتضمن الباب الثاني ستة فصول ، تناولت في الفصل الاول : عصر الباقلاني ، سياسيا واجتماعيا وثقافيا ، وذلك لأن تفكـير الانســـان يتأثر بما يجري في عصره من اتجاهات ، سواء استجاب لها أو سار في خط مضاد لهذه الاتجاهات وتصدى لمقاومتها ·

وفي الفصل الثاني تناولت الكلام عن نشـأة الباقلاني ، وحياته ، وثقافته ، وأشرت في خلال ذلك الى :

(١) اسمه ، وكنيته ، ولقبه ·

(٢) ولادته ومنشـأه ·

(٣) أسـرته ·

(٤) تحقيق اللقب ·

(٥) مذهبه الاعتقـادي ·

(٦) مذهبه في الفـروع ·

(٧) ملامح عن شـخصيته ، وثقافته ·

وأما الفصل الثالث ، فقد تحدثت فيه عن اتصال الباقلاني بعضد الدولة البويهي ، ورحلته الى الروم ، ومناظراته ·

وأما الفصل الرابع ، فقد تناولت فيه الكلام عن شيوخ الباقلاني ، وتلاميذه ·

وأما الفصـل الخامس ، فقد تناولت فيه مؤلفاته ، وآثاره ، فاحصيتها ورتبت ما امكن ترتيبه بقدر ما اسعفتني المراجع ، وعرفت في ايجاز بالجزء المخطوط من كتابه « هداية المسترشدين » المحفوظ بمكتبة الازهـر ·

وأما الفصـل السـادس ، فقد تحدثت فيه عن آراء العلماء في الباقلاني ، و في وفاته ، وثناء الناس عليه بعد وفـاته ·

وأما الباب الثالث ، والرابع فهما من صميم الرسالة ، لانهما يتناولان آرائه الكلامية فقد جاء الباب الثالث في أربعة فصول ، تحدثت في الفصل الاول عن منهجه الكلامي ، واشتمل هذا الفصل على مواضيع كثيرة متعددة ، كرأي الباقلاني في المعرفة ، وأقسام العلم ، ومدارك العلوم ، والاستدلال ، وانواعه ، وايمان المقلد ، وغير ذلك من المواضيع، ثم بينت أن الادلة عند الباقلاني تنقسم الى قسمين : ادلة نقلية ، وادلة عقلية ، وذكرت أن الادلة النقلية عنده هي : الكتاب والسنة ، والاجماع والقياس ٠

وأما الادلة العقلية ، فهي : ما يلي :ـ

أ ـ القياس

ب ـ السبر والتقسيم ٠

جـ ـ انتفاء المدلول لانتفاء دليله ٠

د ـ الاستدلال بالشبيه أو النظير ٠

هـ ـ فن الجدل ٠

و ـ الاعتماد على مسلمات الخصوم ٠

ثم تحدثت في الفصل الثاني عن رأي الباقلاني في العالم الطبيعي ، وحدوثه ، واشتمل هذا الفصل على المقدمات التي ينبني عليها حدوث العالم ، فبينت المسائل التي تناولها الباقلاني بالبحث ، كمسألة المعلوم والشيء ، وأقسام الموجودات كالجواهر ، والاجسام والاعراض ، ثم بينت صفات الجواهر وأحكام العرض ، عند الباقلاني والمتكلمين ٠

ثم تحدثت في الفصل الثالث عن رأي الباقلاني في حدوث العالم ، واستدلاله عليه ، وبينت الامور التي يتوقف عليها اثبات حدوث العالم، كاثبات الجوهر والعرض وحدوثهما ، واستحالة وجود حوادث لا أول لها ، وغير ذلك من الامور المتعلقة بهذا الموضوع ٠

وأما الفصل الرابع ، فقد خصصته للكلام على ردود الباقلاني على الطبائعيين والمنجمين الذين ينكرون الصانع ، ويرون أن صانع العالم طبيعة من الطبائع ٠

ثم انتقلت الى الكلام عن الجانب الالهي في الباب الرابع ، وتحدثت في الفصل الاول منه ،عن استدلالات الباقلاني على وجود الله ووحدانيته، ثم ردوده على بعض الطوائف التي خرجت على الوحدانية ، كالثنوية بجميع طوائفها ، والنصارى بفرقها المختلفة ٠

واما الفصل الثاني فقد تناولت فيه الكلام عن الصفات الالهية ، وبيان موقف المشبهة ، والمعتزلة والفلاسفة وأهل السنة منها ٠

ثم بينت رأي الباقلاني في الصفات ، واستدلاله عليها ٠

ثم تحدثت عن صفات الذات ، وصفات الافعال ، وبينت أن الباقلاني يعتبر صفات الذات هي القديمة ، وأما صفات الافعال فحادثة عنده وعند الاشاعرة جميعا ، ثم تكلمت عن علاقة الذات بالصفات ، فبينت ان الصفات عند الباقلاني ليست عين الذات ، ولا غير الذات ، وذلك هو رأي الاشاعرة جميعا ، وأما المعتزلة فقالوا : ان الله عالم بذاته ، وقادر بذاته ، فانكروا بذلك ان تكون لله صفات زائدة على ذاته ٠